تعامل .. وعطاء(*)

كلما يممت شطر الكتابة: وجدتني أسأل نفسي بكثير من اللوعة وتصور ما للكلمة من حقوق، عن المجدي في تلك الكلمات التي أتصل من طريقها بالإخوة القراء، وتكون صفحات المجلة بريدنا إلى ذلك، مهما بعدت المسافات وطال الزمن.

وبصرف النظر عن أية كلمة هي تلك التي تصلهم حسب الفصل الذي تمر به، والملابسات التي تكتنفها! ما بنيتها ما حدودها ودلالتها؟.. يكون الجواب: إن القول ـ بحد ذاته فيما يمكن أن يقال ـ: معذرة إلى الله وواجب لا مندوحة عنه لمن أراد أن يكون مع الحق وعلى مورد رسالتنا العظيمة، وإلا حقت على كل قادر أن يقول في الحدود المستطاعة ثم لا يقول، ما حق على أولئك الذين كتموا أو يكتمون ما أنزل الله، وأولئك الذين كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يصنعون.

وعلى درب سواء: يكون الشطر الآخر من جواب التساؤل: إن صدق الانتماء إلى الذي ارتضاه رب العالمين لعباده، فأكمل به الدين، وأتم به النعمة: بحاجة إلى البرهان الذي قد لا يقوم غيره مقامه. وهو ذو شقين:

أولهما: فالتعامل مع نصوص هذا الدين ومنهجه الرباني دون عقد، أو مقدمات هي نسيج حقد الآخرين وتآمرهم عبر السنين مما شكل مفهومات

(١) مجلة حضارة الإسلام: العدد السادس، السنة الثامنة عشرة، شعبان ١٣٩٧هـ، آب ١٩٧٧م.

ضالة ملتوية، ليس أقلَّ منها: ظاهرة الكسل العقلي والنفسي، ومفارقة العمل الصالح والبعد عن تحمل التبعات. . فالتعامل مع نصوص الدين بدفء وارتياح على هذه الشاكلة، يختصر الزمن ويوفر الطاقات، ويجعل المؤمن إنساناً يتحرك بقلبه وعقله ومشاعره على أرض الطمأنينة بعيداً عن القلق والتردد، فترى لأقواله وأفعاله في إقدامه وإحجامه: نوعاً من النفاذ والثبات لا تجده عند أولئك الذين يتعاملون مع النصوص برصيد نفسي قلق، ومقدمات ليست من الحق والمعرفة في شيء، الأمر الذي يجعلهم يتقممون كل أسباب المتاعب الفكرية والنفسية من هنا وهناك. وأين هذه الحال من حال أولئك الذين آمنوا واطمأنت قلوبهم برسالة الهدى، فانطلقوا يعملون ويجاهدون، أولئك يدورون على أنفسهم لا يعرفون ما يريدون، وهؤلاء تتسع خطاهم على دروب الخير يوماً بعد يوم.

أما **الشق الثاني** لبرهان صدق الانتماء: فهو العطاء الذي لا يعرف منبعاً إلا العقيدة ووضوح الاستسلام لأمر الله عز وجل، ونفاذ البصيرة في مدلول «لا إله إلا الله محمد رسول الله» حيث الموثق الذي أعطاه المؤمن من نفسه عندما نطق بالشهادتين واستضاء قلبه بهما، فهو على حق اليقين بأنه لا معبود بحق إلا الله، وأنه تبارك وتعالى تعبّد الخلق بالمنهاج الذي أوحى به إلى نبيه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ في كل شؤون الحياة، مما هو في داخل أنفسهم وخاصة ذواتهم، أو فيما له علاقة بالآخرين.

ولسنا بحاجة إلى التفتيش في زوايا التاريخ القديم أو الحديث والمنعطفات في كل واحد منهما، لنعلم أن سلامة الارتباط بأية دعوة أو فكرة: لابد لها

من التعامل مع نصوص المبادئ التي هي مناط الدعوة أو محور الفكرة تعامل التفتح والوثوق المطمئن، ثم العطاء الذي لا غنى عنه لتحويل تلك المبادئ إلى عمل وتنفيذ، وما ذاك إلا لأن وجودها العملي في دنيا الواقع والحركة لا يمكن أن يكون إلا بذلك.

ولما كان ما نقوله قدراً مشتركاً يعرفه أهل البحث ورواد التجارب، فإن هناك شقيقة مباركة تزين عمل المؤمن في ظل دعوة الإسلام، تلك هي الحركة في إطار الإيمان، والتطلع القائم على اليقين بكل ما جاء به الخبر الصادق عن الله عز وجل في كتاب أو سنة، وما أعطته سلامة البنية الفكرية في كل منهما، حيث العقل والتدبر وبصائر أولي الألباب كلٌّ بحسبان، وبهذا يكون الأمر أدخل في ضرورة هذا الذي نقول.

ولقد يعلم غير واحد من الإخوة القراء: أني لا أميل إلى التشاؤم، رغم كل ما يتبدى في الجو من عثير يزكم الأنوف، لكن في الوقت نفسه لا أغرق في التفاؤل، غير أني واثق بفضل الله كل الوثوق، مؤمن بنصره إن نحن نصرناه إيماني بهذه الشمس الطالعة. والذي قد يدعو بعضهم إلى التشاؤم حيث العفن ومثار النقع والدخان الأسود وأمراض الفرعنة، هو هو نفسه الذي يجده المؤمن ميداناً يتقرب فيه إلى الله عز وجل، وجسراً يعبر منه إلى حيث النسب الصادق إلى أولئك الذين أنعم الله عليهم، بصدق الكلمة وسلامة المواقف، والجهاد الذي هو صنو الإيمان. [**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله**].

أقول هذا لأن على الطريق مؤشرات قد يكون بعضها مدعاة لمراجعة الرصيد، وربط النتائج بالمقدمات، ضماناً للمتابعة الواعية في زمن تشعبت فيه السبل، والتبس الحق بالباطل على أكثرهم، خصوصاً أولئك الذين لا يسمعون إلا بأذن واحدة ومن جهة واحدة.

أ ـ فدون العودة إلى الحديث عن الجيل الذي فرِّغ من مقومات الإنسان المسلم ـ إلا من رحم ربك ـ وحمل على التسليم بمنهج الآخرين وحكمهم على الإسلام نفسه، الأمر الذي أثمر اضمحلال قدرته على التغيير والتحرير، أو متابعة الخط الإسلامي الصاعد الذي قوامه العقيدة، والاستعداد للبذل والعطاء في ميدان العمل والجهاد.. أقول: دون العودة إلى الحديث عن هذا الجيل الذي ضرب على طريقة تفكيره ومنهج سلوكه بالأسداد.. فإن جيل الثلث الأخير من القرن الخامس عشر للهجرة، بدأ يحس الكارثة بعمق، ويدرك أبعاد ما حصل بدءاً من حملة بونابرت وعقابيلها، ومروراً بآثار الحرب العالمية الثانية على العالم الإسلامي في ميادين الأخوة الإيمانية، والفكر والسياسة والتشريع، ووقوفاً عند الذي هو واقع اليوم في فلسطين وغيرها من شتى بقاع هذا العالم.. بكل وجوهه وألوانه، ما كانت مسؤوليته منوطة بنا وواقعة على عاتقنا، وما كان مرده تآمراً مجنحاً وحقداً أسود، استخدمت لهما منجزات العلم التقني، فلسفات المذاهب ودراسات علم النفس.. وما إلى ذلك.

نعم.. إن هذا الجيل يحس ذلك بفضل الله ثم بجهد الأيدي الأمينة التي فتحت عينيه ـ رغم كل الأعاصير والظلمات ـ على الحقيقة، وحاولت

بإخلاص ووعي أن تصله بماضيه مجدداً، مع التفهم الجاد المتكامل لحاضره والعالم الذي يعيش فيه، كيما يكون قادراً على أن يضع قدمه بشجاعة وطمأنينة على الطريق.. وعندما أقول: الجيل.. لا أعني أن أسقط من الحساب أولئك الغافلين أو المغفلين، ولا من حملوا عبء أن يضلوا عن سبيل الله بمختلف الوسائل وأشنعها، بل أن يكونوا دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها.. لكني أعني بنية هذا التيار، تيار المعرفة والوعي، والصلة بالفكر الصحيح البعيد عن الشوائب، الذي أصبح ميسراً أمره إلى حد لا بأس به لمن أراده وسعى له سعيه، وليس ذلك وكفى، وإنما بالإضافة إلى ذلك صبر على وعورة الطريق، وتحمل الأعباء والابتلاء؛ لأن كل ما تراه حسنات: أن ديدنهم أن يكونوا عند مدلول «الله ربنا». وما ينقمه أعداء الله منهم هو نفسه أسوأ خلالهم عند أعداء الله والإنسان، ودع عنك صورة القطيع التائه من مرضى القلوب في كل زمان، الذين يشترون بالحق ثمناً قليلاً، فيزينون السيئة للمسيء، ويلبسون الحسنات ثوب الضلال والمنكرات.

من أجل ذلك ـ وعلى مرآة النقيض ـ كان برهان سلامة البنية التي أشرنا إليها: تلك الحرب المسعورة المعلنة على كل ما هو نقاء وصفاء، وعلى كل ما هو هدى وضياء.. لا على المستوى الضيق المحدود وإنما على المستوى العالمي حيث يحسب للإسلام حسابه على كل صعيد، وتعد العدة لحربه بمختلف السبل ـ خصوصاً على صعيد الفكر والدراسة والبحث ـ وذلك رغم

ما هو ظاهر من لين عود المسلمين وسوء أحوالهم من ناحية القوة والتنفيذ في شتى أنحاء العالم. . ففي كثير من البقاع ترى موقعهم موقع من يتلقى الضربات صباح مساء، ويشعر أنه في معركة وجود أو لا وجود. . حيث يراد لهم ـ وهذا واقع صنيع الأعداء والذيول ـ أن يكونوا أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام، وما تخفي صدور حملة الإثم أكبر، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ب ـ وعلى الصعيد العام: إن قضايا كثيرة قد ذللت سبلها من الناحية النظرية وجمال العرض، وكشف عنها النقاب، وأزيحت من على ظلالها الشبه والأوهام. . وذلك من طريق البحث والإنتاج، والدراسات الجامعية والتخصص، ناهيك عن تلك المؤتمرات التي عالجت وتعالج من قضايانا الكبرى الكثير الطيب. . وأذكر على سبيل المثال لا الحصر مما عقد خلال السنتين الأخيرتين. . مؤتمر المسجد الذي تقيمه دولياً رابطة العالم الإسلامي، مؤتمر الاقتصاد الإسلامي الذي عقدته في مكة المكرمة جامعة الملك عبدالعزيز، مؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقدته في الرياض جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مؤتمر ندوة الشباب العالمي للإعلام الإسلامي، المؤتمر العالمي للدعوة وتوجيه الدعاة الذي عقدته الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، مؤتمر التعليم الإسلامي الذي عقدته أيضاً جامعة الملك عبدالعزيز هذا العام، وكذلك مؤتمر السيرة الذي عقد في إستانبول، ومؤتمر السنة والسيرة الذي عقد في قطر!

فإذا كان الكتاب موجوداً وفيه الفكر والتمحيص، ومصادر هذا الإسلام واضحة لكل ذي عينين، ـ والكلام مع المنصفين ـ وإذا كانت هذه المؤتمرات وهي تجمع ـ فيما تجمع ـ عدداً من أساطين العلم والمعرفة والمعاناة الفكرية، إذا كان هذا كله حاصلاً ومعه ما ذكرنا عن جيل الثلث الأخير من هذا القرن، فإن الأمر الحتمي اللازم إذاً. . أن نحاسب أنفسنا إلى أي حد نحن صادقون فيما نعلن ونقول. . أن نعود إلى أن نكون أكثر مراقبة لله تعالى، وأكثر عمقاً في استطلاع الخبايا والخفايا من هنا وهناك. .

الأمر إذاً. . مع الحصيلة التي ذكرنا ـ وهي قليل من كثير ـ أن نتعامل مع نصوص الإسلام بنور الإيمان وصفاء الإخلاص، وتفتح البصيرة، والاستسلام الصادق لدلالات النصوص وأبعادها، وجميع مستلزماتها في القول والعمل والسلوك. . فيما تريد أن تحملنا عليه من مركب تراه النفوس الضعيفة مركباً خشناً. . ثم العطاء كل حسب الثغر الذي أقامه الله عليه دون مداهنة أو مواربة، أو تسمية للأشياء بغير أسمائها، ودون احتيال على المضمونات بغير عناوينها، وطرح تعريفات مقلوبة منكوسة ما أنزل الله بها من سلطان. . وأخشى ما يخشاه الذين يرجون لله وقاراً، أن يسلم التقاعس أصحابه إلى أن يبوؤوا بالإثم الكبير، إثم تعويق قافلة الخير في مسراها المبارك الميمون، ذلك أنه كلما ازداد الوضوح، واستبانت المؤشرات والمعالم، تضاعفت المسؤولية وتعاظم ثقل الأمانة. . وهذا لا يعني الغفلة عما يعترض سبيل الحق من عقبات، فتلك سنة لا تتبدل، والتمحيص جزء من القضية لا ينفصم.

ألا أن خطوة متقدمة على طريق التغيير كيما تفيء الأمة إلى وجودها الحقيقي تبدأ من هنا . . من وضع هذا الرصيد في الحسبان، وإعطاء كل جزئية مكانها ضمن الكلية العامة والمنهج . . في استجلاء للحقيقة كما هي، لا كما قلب عنوانها الآخرون .

والقادرون على إخراج قضايانا من إطارها النظري إلى ميدان الهيمنة والتطبيق : لا يعفيهم من حكم التاريخ، ولا ينقذهم من النار، إلا أن يستخدموا قدرتهم - وكم للقدرة من صور وشعب - وما أولاهم الله من فضله ونعمه، لتحقيق ذلك . . وطوبى لمن يقتحمون العقبة ويرفعون عقيرة العمل لمرضاة الله عز وجل . . وإن أغضب ذلك كل أوثان الأرض .

إنه لا يكفي أن نجد الحقيقة ونطوف حولها بالكلام . . . بل لابد من أن نحمل عبء إخراجها إلى حيز الواقع وتطويع هذا الواقع لها . . إذ إن وجودها العملي هو عنوان الصدق معها والإخلاص لها . . وما وراء ذلك من العبث لا يجدي فتيلاً .

مرة أخرى . . نسأل الله عونه على حسن التعامل مع الإسلام في منابعه ونصوصه . وصادق العطاء ثمرة لذلك . . ومعذرة للقارئ الكريم إن كنت أوسعت القول دون تعمل في جواب تساؤلي عندما أحمل هذا القلم الضعيف للكتابة هنا .

وليس على الله بعزيز أن يقفنا عند الذي أراد بقوله سبحانه : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ .

الإنسان .. والهداية (*)

الحمد لله وسلام على معلم الناس الخير محمد عبدالله ورسوله . . آمنا بما أنزل الله من كتاب . . وصدقنا بما أوتي خاتم النبيين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من بيان . . ويا نعم ما يتلو التالي لهذا الكتاب من قوله تقدست أسماؤه : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ .

إذ كلما حملت إلينا دورة الزمن شهر رمضان ـ ونحن لا نكاد نفيق من الغفلة ـ يحس أهل الرضى فينا أن شيئاً من ينابيع حياتنا قد عاد إلى التدفق مجدداً . . وأن صورة من قدرة تاريخنا على العطاء . . راحت تلتمع ـ بعد طول أمد ـ على طريقنا الموحشة . . تلك الطريق المزروعة بالغفلة والإدبار عن حقائق الإسلام . . ثم بتآمر أعدائنا وكيدهم الذي لا يعرف له لون ، لأنه من كل لون . . عادت هذه الصورة لتسهم في عملية التغيير والبناء . . كي يكون النسب متصلاً مع الذي صنعه القرآن حين صاغ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ القاعدة الأولى . . فراحت تضرب في الأرض معلنة منهج بناء الإنسان ، وخطة التغيير إلى ما هو الخير في كل الميادين : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

(*) مجلة حضارة الإسلام : العدد السابع ، السنة الثامنة عشرة ، رمضان ١٣٩٧هـ ، أيلول ١٩٧٧م .

أترانا نتابع الرحلة مع ذاك الذي يحسه أولئك الذين تؤرقهم جفوة الأمة لرسالتها، ومعاناتها لواقع لا تغبط عليه.. فنخرج من حيز الإحساس بالصورة.. إلى حيز إخراج الصورة إلى حيث تعمل عملها في دنيا الواقع.. هذا سؤال مضى على طرحه بمختلف اللغات وألوان الأساليب سنين عدداً من الزمن.. وهذا الجيل ـ وبكل مآسيه التي يعيشها ـ مطلوب منه وقد وعى نسيج المأساة.. وأدرك ما كان متشابها في أوائل هذا القرن ـ مطلوب منه أن يجيب عن هذا السؤال بالإيجاب؛ وذلك بأن يتابع الطريق التي ما تزال أخبار بُناتها ومعديها غضة طرية بين أظهرنا، دون غفلة عن سياط الجلادين وتمويه المموهين.. وما أكثر العبر وأقل المعتبرين، والعاقبة للمتقين.

وبشجاعة المؤمن الذي لا تنطلي عليه أساليب القرن العشرين، ولا يصرفه عن الحقيقة تزيين الباطل، كما لا يحسب الشحم فيمن شحمه ورم.. لا بد من تخطي أسطورة التخلي عن مقومات الأمة في دينها وتاريخها ولغتها إلى حيث الالتزام بمدلول الهداية التي نزل بها القرآن يوم تأذن رب العزة فأوحى إلى عبده محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما أوحى.

صحيح أن هداية القرآن التي تمثلت في المنهج الرباني الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من شؤون الإنسان والحياة، عزلاء من مؤيدات القوة اليوم.. وأن الأسطورة التي نلمح إليها تحظى بكثير من تلك المؤيدات.. ولكن هذا لا يغير شيئاً من هوية أي منهما.. فالحق هو الحق والباطل هو

الباطل . . والمهم أن نكون على النبع الأصيل فيما نفقه من دين . . وفيما نترسّم من منهج . . وفيما نحزم أمرنا لنحول الدعاوى إلى أعمال ناطقة يرضى بها عنا الله ورسوله . . وتصلنا بالرعيل الذي بنى حضارة الإنسان . . نظيفة أقدامنا من براقع الأقزام . ونلقى الله وقد بذلنا المستطاع ! !

ومع الآية التي في ضوئها أدرنا الحديث .

ما الذي رأت الدنيا من أخبارها . . ويوم جاءت تحدث أخبارها . . لابد من الوضوح في الرؤية .

كي يتسنى للعاملين أحكام الصلة بين ما كان وما يجب أن يكون . . ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ .

أنزل فيه القرآن . . فكانت الهداية ، وتحققت مستلزماتها ، وثمراتها على هذه الأرض . . أنزل فيه القرآن . . فكان العلم والمعرفة . . وكانت المعالم والقيم . . وانحسر مد الجاهلية والجهالات . . أنزل فيه القرآن . . فكان الإنسان بعبوديته لله . . وإذا وجد الإنسان . . أخذت الرسالة أبعادها وعملت عملها في التغيير إلى ما هو الأفضل في كل ميدان .

وإنها لرسالة حملها الإنسان الذي عشا إلى ضوئها في بطاح مكة . . فكان المؤمن إلى المؤمن ـ بنسب العقيدة ـ قوةً وثباتاً ورهبةً في صدور الطغاة والعابثين ، وصياغة إسلامية للحياة ما تزال بصماتها شاهد عيان في كثير من بقاع العالم .

عرفنا ذلك أكثر وأكثر . . يوم انعكس المنظور إلى الإنسان . . فأصبح الإنسان إلى الإنسان وسائل إيضاح يعبث بها أعداء الإنسانية، ومجموعاً من العوائق دون تحقيق الحرية والكرامة ورفع القيد عن الكاهل المظلوم .

أوليس شهر رمضان هو الذي علمنا بوقائعه التي كانت انعكاس الهداية في بدر والفتح وعين جالوت وغيرها؟ أنك إذا أردت للرسالة أن تأخذ أبعادها في التغيير وصياغة المجتمع كما ينبغي، وللحق أن يعرف طريقه عميقاً . . عميقاً في التاريخ . . فعليك بهذا الإنسان بناء وتقويماً، وسلامة إعداد . . وأن الذين يعبثون بهذه القيم ليسوا من الحق وأهله في شيء .

فالوجود المادي للإنسان : ليس هو المقصود الأول عند الحديث عن القيم والارتفاع بالأمة إلى حيث أراد لها بارئها، وليس هو المقصود عند الحديث عن إنسان الرسالة والتغيير، واستنقاذ الكرامة وحكم التاريخ . . وكل الوجود الذي يريده الإسلام . . إنما هو الوجود الثقافي والفكري بمعناه الأعم، وجود الإنسان متمتعاً بحريته ـ في إطار العقيدة ـ كيما يفكر، كيما يكون قادراً على العطاء . . لأنه موجود . . كيما يسهم في دفع القافلة بإرادته لأنه إنسان . . دون إهمال للوجود المادي . . وذلك ما أثمر كل معاركنا الفاصلة عبر التاريخ .

أما حين نعطل فيه الوجود الأمثل . . وننفخ في مثاليات التغيير وتحقيق الغايات الكبار . . فذلكم التناقض والعبث بالعقول . . وإذا حصل ذلك . . فلا تأس على ما يكون من النتائج التي يبوء بإثمها أصحابها . . واستقبل

أكداساً من الركام . . وألواناً من مخلوقات حفر على جباهها : أين الإنسان؟

ولا يحسبن حاسب أنا ـ بما نقول ـ نضرب في عالم الوهم والتجريد، وإنما هو الواقع الذي تملأ الأمثلة والشواهد عليه دنيانا ودنيا الناس .

ولشد ما كان انتصار الدارسين المنصفين للتاريخ عظيماً حين وقعوا على سر الارتباط بين المعارك الحاسمة التي حققتها الأمة، وبين الإنسان الذي تربى على قيم الإسلام واندفع غير هياب لتحقيق ما آمن به، فكان أقوى من الصعاب لأنه موجود بعقيدته وكرامته وإرادته . . وأقدر على المألوف في المجال الزمني ووسائل الصراع . ولِمَ لا؟؟ وقدرته ـ وهو على هذه الشاكلة ـ من قدرة الله، فهو يملي على التاريخ مشيئته بإذن مولاه ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ .

إنه لابد أن يصل إلى كل قلب وعقل في دنيا عالمنا الكبير في مختلف الأمصار حيث تختلف المظاهر فيما يعانيه المسلمون، والحقيقة واحدة، وهي حقيقة الصراع بين الحق المتمثل في رسالتنا وبين الباطل الذي تحشد له القوى من هنا وهناك . . ويصير ذلك ركيزة التفكير والتصور . . .

لابد أن يصل إلى كل قلب وعقل في تلك الأصقاع : أن نزول القرآن كان منعطفاً هائلاً في تاريخ الإنسانية أسلمها إلى طريق النجاة من أوضار الشقاوة، ووقفها على حصيلة التجربة الطويلة عبر القرون، وعلمها كيف تقوِّم حصاد تلك القرون . . ثم أبرز الحقيقة حتى بدت كما هي دون زيف أو

تأويل، وكشف عن هوية الباطل، كيما تقع المفاصلة بينه وبين الحق، فلا تشبّه الفتنة ولا تلتوي شعاب الطريق.

وما أكرم تلك السوعد التي كانت تتحرك بالإيمان فتصنع التاريخ، وتُثبت على صعيد الحركة والواقع أن هدى الله هو الهدى، وأن الاحتكام إلى الطاغوت ضلال وخبال.

على هذه الساحة المضيئة، نذكر من خلال خصائص رمضان ذينك الخطين المتوازيين في العمل؛ جهاد النفس لأن من داخلها يبدأ التغيير والبناء، وجهاد العدو في سبيل الله. فترى في جهاد النفس صياماً وقياماً ومنافرة للشهوة والمألوف، وحجازاً عن كل ما يؤذي صيام الصائم على مستوى الخلق والفضيلة، وترى في جهاد العدو إيماناً بوعد الله، وصدقاً لما عاهد المؤمن ربه عليه، وإعداداً وبذلاً والتزاماً بمواقف التضحية والمحبة الصادقة لله، والتفاني في عناق الراية التي تحتها يقاتل المسلم لإعلاء كلمة الله.

ألا ما أشد احتياجنا إلى تربية رمضانية تؤتي أكلها على كل صعيد، متجاوزة تلك الحدود الزمنية لشهر من شهور السنة؛ إذ النفوس غلابة.. والشهوات قاهرة.. والخوف على الرزق والأجل يضاجع من يفترض إيمانهم بأن الأرزاق والآجال بيد الله.. والأمانة تشكو وتشكو.

ترى.. هل ينهض من كبوته الجواد.. فتثور الهمم وينقدح الزناد.. وتذكر الأمة أن شهر مضان الذي يدخل عامه السابع والتسعين بعد الألف،

قمين ـ بما يحمل من نفحات وخصائص وعظات ـ أن يربط هذه الأمة بنقطة البدء الأولى . . فتعلن ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ إعلانها مجدداً . . وهنالك تتكامل خطى الجيل القرآني المنشود، الذي تنعقد عليه الآمال في وصل ما انقطع من الأمة بين قرآتها ومعاركها ورجالها من أسباب، ويرتفع بنا وجوده إلى حظيرة أولئك الرجال الذين يقلون عند الطمع ويكثرون عند الفزع، أولئك الذين ما عفروا جباههم إلا بين يدي الله، فاستعذبوا الموت في سبيله، وكانوا رهبان الليل فرسان النهار . . وعندها تتقطع أنفاس الخفافيش . . ويعفي هدير الكلمة المؤمنة على أشباه الرجال .

ألا وإن الأمة مدعوة لتحقيق المعاني التي تثيرها ذكريات شهر رمضان وما فيه من أوامر ومنهيات إلى مزيد من العناية بالقرآن ـ من جميع الوجوه ـ صنيع السلف الصالح ـ عليهم الرحمة والرضوان ـ بحيث نتصل بمعانيه ومدلولاته بعيداً عن كل شائبة أو انحراف، والله المستعان على التدبر والعمل .

وأن يكون للسيرة في أبعادها وعمق ارتباط وقائعها بالرسالة : متسع نوليه مزيداً من العناية على صعيد الأمة عموماً، وعلى صعيد المسجد والمدرسة والجامعة والإعلام على وجه الخصوص . عسى أن تكون المسيرة كلها ابتغاء مرضاة الله، وتثبيتاً من عند النفوس في طاعة الله!

وإذا كان في جعبة رمضان معركة الفرقان والفتح وغيرهما . . فإن هذا مما يثير ضرورة إيضاح معنى الجهاد في الإسلام وكيف أنه في خدمة الدعوة، فحيثما تطلبت الدعوة الجهاد، فتلك فريضة الله في أعناق المسلمين، والفهم المسترخي لطبيعة الجهاد في الإسلام : سلاح قاتل بيد أعداء الله .

نقول ذلك كله والعبادة حجر الزاوية في رمضان كيما تعكس ذلك على العام كله في حياة المسلم؛ فصيام النهار وقيام الليل إيماناً واحتساباً، والإكثار من التلاوة والتدبر، والصدقة والبر، وصلة الأرحام.. والتبتل الصادق بين يدي الله عز وجل متقلبَ المؤمن بالليل والنهار.. وترقب ليلة القدر ومضاعفة العبادة فيها.. كل ذلك مرتبط أيما ارتباط بالذي أشرنا إليه في صدد هذا الحديث.

والله المسؤول أن يجعلنا ـ بفضله وكرمه ـ من أهل محبته، ويكتبنا في عداد عباده الذين يعطيهم إذا سألوه، ويستجيب لهم إذا دعوه.. وأن يعتق رقابنا من النار، وأن يحرر الأمة من قيودها وأغلالها، إنه نعم المولى ونعم النصير.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وقفة .. مع المسلم المعَاصر(*)

هل أتاك نبأ ما يفترض بالمسلم أن يعمله وهو يودع أربعة عشر قرناً تقضت مع دعوة الإسلام؟

إن الحديث عن هذه القضية بثقلها وأبعادها: حديث عن مسؤولية جيل بكامله عرف ما عرف وأنكر ما أنكر.. حديث عن جيل عاش على صعيد الفكر والثروة المدونة في الكتاب: أبهى وأجمل ما عرفته الإنسانية في تاريخها الطويل على كثرة شعابه ووهاده.. وأصابه لفح الهجير من أعداء الإسلام والمظاهرين على دعوته.. وكاد يضيع بين الفكر المدون والتاريخ، وبين واقع هو على النقيض من ذلك المدون في كثير من الأحيان.

ولكن الدين الذي تَعبَّد الله به خلقه على لسان نبيه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان قادراً على أن يعطف من تفتحت قلوبهم للخير من أبنائه إلى حظيرة الحق مجدداً.. لقد عطفهم بالسواعد القوية الأمينة، ودميت على الطريق أقدام، وكان التيار الذي استعصى ـ على العواصف الهوج والأمواج العاتية ـ لما كان من بنيته التي جمعت إلى سلامة العقيدة والتصور، سلامة القدوة والعمل. وكم للتاريخ من شهادات عادلة في هذا المضمار. والله متم نوره ولو كره المشركون.

ولقد يكون عزيزاً على المرء أن يقنع باللمحة العابرة لهذه القضية؛ لما أنها المطلب الذي تجعله رداءة المناخ عزيز المنال، ولكن ذلك لا يعفي من ملامسة

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الثامن، السنة الثامنة عشرة، شوال ١٣٩٧هـ، تشرين الأول ١٩٧٧م.

الجوانب والتذكير بعظيم شأنها، خصوصاً حين يذكر العاملون، واحدة من المسلمات الإيمانية وهي: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

إن المسلم المعاصر مدعو اليوم، إلى أن يدرك بعمق، ضرورة العمل بكل الوسائل الممكنة المشروعة، مما أقره العلم والتجربة، على إشاعة الوعي الإسلامي الذي يعرِّف المسلمين حقيقة دينهم وأصوله الأولى في كتاب الله وسنة رسوله وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وفهوم أئمة الهدى، كيما يعملوا بهذا الدين، وينظروا إلى الواقع من خلال الإسلام وموازينه، ولا ينظروا إلى الإسلام من خلال الواقع المهترئ وموازينه المهزوزة، لأن النظرة الأولى هي الخطوة الأولى على طريق عنوانه «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» وبذلك تطمئن نفوسهم إلى أن المبادئ التي ينتمون إليها - وهي الغاية في سلامة مصادرها وثبوتها - هي القادرة بوصفها تمثل الحق كما أراده الله - على الظهور على كل نحلة واتجاه ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ وهي - في حقيقتها - ظاهرة وإن لم يكن للإسلام في هذا العصر سلطان قاهر على صعيد الحكم والتنفيذ.

وإلى جانب ذلك.. إن على المسلم المعاصر اليوم.. أن يعيد الثقة إلى نفوس المسلمين بأن الانفصام بين الواقع المتحرك، وبين المبادئ المقررة في مصادر ثقافة الأمة: ليس هو صورة انهزام الإسلام، وعدم قدرته على أن يدير عجلة الحياة كما ينبغي، وإنما هو في حقيقته صورة تخلف المسلمين

نتيجة استخذائهم واتخاذهم دينهم ظهريا، ثم تآمر أعدائهم الذين عرفوا مقاتلهم، فعمقوا الضربات فيها بشتى أنواع الأسلحة وصنوف التدمير والفتك، ومن هذه الأسلحة ما تردده الببغاوات - في خواء من الثقافة - حكماً على إسلام هم اخترعوه وحكموا عليه، والإسلام الذي ارتضاه الله لعباده منه براء. ودون مواربة: لقد تخلى نفر كبير من المسلمين عن الذاتية وسلامة الانتماء، ورضوا بهوان التقليد الأعمى والانبهار الأبله بما عند الآخرين دون تمحيص، لما أن ذلك لا يكلف صاحبه شيئاً مما إلى تحقيقه يطمح الأمناء من أبناء الأمة.. فلا عقلانية ولا بذل.. ولا تضحية ولا عطاء، وإنما انحدار بارد ممقوت إلى حيث العداء المعلن أو ما هو دون ذلك، لكل ما هو من كيان الأمة ومقومات وجودها وتراثها بسبيل. وإذا لم تكن هذه من المقاتل.. فإلى أين تصدَّر العقول؟!

ولقد أورث ذلك على صعيد البنية الحضارية وحكم التاريخ: أن أصبح أكثرهم - حتى على صعيد الفكر والتصور - في حالة كئيبة من العجز عن أن يكونوا أبناء تلك المرتبة العلية التي أعطيها أسلافهم في القرآن، وهي الشهادة على الناس ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. وفي لفظ ﴿النَّاسِ﴾ هنا من العموم والشمول ما يكفي للدلالة على هذا التكريم الإلهي.

إن جانباً مما ينتظر المسلم المعاصر من مهمات: أن يعمل عمله في تبيان ذلك بموضوعية وحرقة، كيما تكون الدعوة وإعادة الثقة على بصيرة، لما أن إعادة الثقة إلى المسلم بنفسه من خلال كونه مسلماً ينتمي إلى هذه الأمة الماجدة..

دعوة إلى تصور معنى التكليف، والالتزام بالمسؤولية.. دعوة إلى الرحلة الشاقة العسيرة اليوم.. وكذلك الرحلة إلى المطالب العالية الغالية.. والعون الكبير على ذلك: العمل على أن يربو الإيمان في النفوس، وأن تستضيء بنور العقيدة القلوب.. تماماً على النهج الذي سلكه القرآن ونبيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ميدان بناء المسلم الذي أنيطت به أكبر قضية عرفها الإنسان، وهي قضية التغيير التي يتبدى حجمها من خلال النظرة إلى ما كان عليه الإنسان قبل البعثة وما أصبح عليه بعدها.

وفي نقلة لم تعد بعيدة في منظار العلم ومنجزاته، ولم تكن بعيدة يوم كان الإيمان يفعل ما تفعله كثير من وسائل اليوم.. أقول: في نقلة غير بعيدة.. قد لا يكون المسلمون في حاضرهم الذي نشهده اليوم على حال يشكو فيها المحلل التاريخي من قلة العدد، فهم كثير والحمد لله، هذه حقيقة ماثلة، ولكن ذلك لا يعني قعود المسلمين عن الدعوة ونشرها في غير دنيا الإسلام، أسوة بسلفنا الصالح حينما انساحوا في الأرض ـ على صعوبة الوسائل ـ يدعون إلى الله.

ذلك لأن غاية الدعوة في الأصل ليست إضافة عدد جديد إلى المسلمين، من أجل المكاثرة على صعيد السيطرة والسلطان، وإن كانت المكاثر العددية اليوم تلعب دوراً لا يستهان به في ميادين الصراع. ولكن غايتها إيصال الهداية إلى القلوب، وفتح البصائر على نور الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده ديناً يسعدهم في الدنيا والآخرة.

ثم إن الدعوة واجب تشهد له نصوص الكتاب والسنة، وواقع ما صنع الأولون في دنيا الإسلام على رحبها وحيازتها لكثير من أرجاء المعمورة.

على أن العمل على أن تأخذ الدعوة أبعادها ـ قدر المستطاع ـ في ديار الآخرين بدءاً من تلك البلاد التي تشاركنا عنوان ما يدعى بالعالم الثالث أو البلدان النامية، وانتهاء بتلك البلاد المتقدمة مدنية، وعلى صعيد العلم التقني وتمكن السلطان في الأرض.. وبخاصة في صفوف المشتغلين بالفكر والثقافة على وجه العموم.. إن هذا قد يخفف ـ على الأقل ـ من تلك الويلات الموروثة من الحقد الصليبي، والمكر اليهودي في الحملة على الإسلام، لا لأن فيه ثغرات قام الدليل على أنها ثغرات، ولكن لأنه الإسلام الذي خاضوا مع أبنائه المعارك وكفى. هذا بجانب أن بعض الاتجاهات في العالم يرعبها أن يكون الإسلام نظاماً كاملاً يتسم بالتوازن والشمول، وينظر إلى الإنسان والكون والحياة نظرة لا تدع منصفاً إلا تحمله على الإيمان بمن أنزل الكتاب والميزانَ سبحانه.

إن التاريخ يحمل ـ وما يزال ـ أنباء حروب طاحنة تقع بين دولة ودولة أو بين قوم وقوم، وقد يكون ذلك على صعيد عالمي تتغير فيه الموازين، ويعاد رسم الحدود والخرائط.. إلخ، وتنتهي الحرب وتعود الأمور إلى ما كانت عليه ـ مع هذا التغيير ـ، وتسير الحياة سيرها الطبيعي، دون حقد يدخل في صميم الثقافة وتكوين الفرد، ويتسع حتى يشمل بنية الأمة بكاملها. إلا ما كان من الحرب بين الإسلام وخصومه ـ وهم الذين بدؤوه العداء ـ فهي دائرة

توقد نارها تحت شتى العناوين والمبتدعات . . وإن لم تظهر هذه النار لبعض الغافلين أو المغافلين .

وإذا كان الأمر كذلك : فإن ساحة متسعة الأرجاء للدعوة ؛ قد يكون كفاءَها أولئك الذي كتب لهم أن يكونوا في تلك الأصقاع بحكم عملهم أو دراستهم ، أو أن جهات معينة توفدهم لهذا الغرض . والمهم أن يكون الداعية على شيء من المعرفة بأصول ما يدعو إليه والسلامة في السلوك . . خصوصاً أن تلك البلاد المتحضرة التي حقق فيها العلم التقني منجزات ـ لو بعث الأولون ورأوها لوضعوها في عداد الأساطير ـ : هي في خواء روحي ونفسي يجعلها عطشى إلى المنقذ . . ولن يكون ذلك إلا بهذا الإسلام .

تلكم بعض اللمسات العجلى لما يفترض بالمسلم المعاصر أن يعمله على الصعيد الداخلي في دنيا الإسلام ، وعلى الصعيد الخارجي نشراً للدعوة وتبليغاً لرسالتها .

ولن تعفينا هذه العجالة من التذكير بأن كبر الغايات المطلوب تحقيقها توجب أن تتضافر كل الجهود ، كيما يكون المسلم في داخل نفسه وفكره وقدرته على العطاء ، أهلاً لما يفترض بداهة أن يكون ؛ فأوضاع العالم الإسلامي وأوضاع ذلك العالم المتحضر الذي ينشد الطمأنينة ، فلا يجدها بعد أن اخترع الآلة وتحول إلى عابد لها ، واستخدم المادة ثم أصبح مستخدَماً لها ، فهي تحكم قيمه ومقاييسه ونظرته إلى الحياة والناس قربوا أو بعدوا .

إن هذه الأوضاع كلها بأمس الحاجة إلى اليد الصناع القادرة على التغيير، فكلما أعد المسلم نفسه، وأعطت الأمة الأفضلية في الأعمال لتربيته ومعاونته على الإعداد بذاتية وأصالة وصدق انتماء.. كانت الخطوات على الطريق أشد ثباتاً. وأبعث على التفاؤل.. لأن ساحات الجهاد والمعرفة وميادين التعبير الحضاري الصادق عن وجود الأمة.. في شوق إلى ذلك المسلم.

والآن: هل أتاك حديث الذين يحملون القناعة بهذا، ويعمدون إلى تحويلها إلى عمل، فيوظفون الطاقات في هذه السبيل، ويسخرون ما أعطوا من علم وثروة وفكر لتحقيق تلكم الغايات الكبار؟ إن هؤلاء هم ممن يتقبل الله منهم أحسن ما عملوا، لأنهم على إرث النبوة واردون، ومن معينها ينهلون ويسقون ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾.

أرأيت إلى هذا الذي حمله سيد العالمين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: يتلو عليهم آيات الله تعالى، ويربيهم ويزكي نفوسهم ليكونوا الحركة الناطقة بما يدعوهم إليه، ويعلمهم الكتاب والحكمة؟! ومما يزيد الأمر أهمية أن هذه الآية سبقت بتنزيه الله تعالى بحيث يسبحه كل من في السماوات والأرض والتذكر بأنه العزيز، وهو الغالب على أمره ـ الحكيم سبحانه ـ ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾.

ولقد أثمر هذا الصنيع الذي تولاه نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب ثلاثة وعشرين عاماً ـ تلك القاعدة الصلبة

التي اتسمت بالإيمان والمعرفة وحب الجهاد على تفاوت بين أبنائها في هذه المزية أو تلك، ولكن القاسم المشترك بينهم جميعاً، صدق الإيمان والقدرة على العطاء في سبيل التغيير الذي كان إخراج العرب خصوصاً والناس عموماً، من الظلمات إلى النور، ولو رجعت البصر في أي بقعة استعلنت فيها كلمة التوحيد: لرأيت أثر هذا الإخراج من الظلمات إلى النور كيف كانت دلائله وآثاره.

وهكذا.. فبمقدار ما تتوافر لنا سلامة التصور لما ينتظر المسلم من مهمات، وما نحمل من حرقة صادقة على مصير الأمة: نكون أقدر على وعي ما يجب أن يعمله أبناء الأمة في هذا السبيل. وكم هي مذكورة مشكورة عند الله والناس، تلك الجهود التي تبذل في مرضاة الله على هذا الصعيد.

وماذا علي بعد هذا إذا ذكرت بأن كل هذا الذي نقول لا يعني الغفلة عن وعورة الطريق، وكآبة المنظر، ووفرة المعوقات.

وأخيراً: هل أتاك حديث من حرموا هذا الخير، فكانوا في طاعة الشيطان تقاعساً عن العمل، أو تعويقاً لسبل العاملين؟ وأشدهما الثانية، لأن لبوسها مدلول قول الله تبارك وتعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا**..﴾. إن العمارة المعنوية للمساجد والتي من أجلها بنيت، إنما تكون بإعداد الأجيال وتربيتها على الفكر النابع من روح المسجد، ولعل الموقف المناقض من أعتى أنواع منع المساجد أن يذكر فيها اسم الله، وأشنع ألوان السعي في خرابها.

وفي عود على بدء: إن المسلم المعاصر ـ والقرن الخامس عشر للهجرة يوشك أن يقعد مقعده في التاريخ ـ مدعو إلى استشعار مسؤولياته الكبار.. والأمة من وراء ذلك مدعوة ـ لا تستثن إلا من سقط عنه التكليف ـ إلى أن تعد للأمر عدته بجد بالغ ووعي مكين.. كي تبرهن بالعمل والممارسة على أن المسؤولية عما به كانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، ليست حكراً على فئة دون أخرى، وأن التزام ذلك المفهوم لون من ألوان التخلي عن الواجب، وأحبولة من حبائل الشيطان والهوى. وربما كان هيبة أن يكشف الخط المستقيم عوار الخطوط المنكسرة والمعوجة.

وكيما يدلل من تتوافر لديهم وسائل العمل المادية أو المعنوية أو هذه وتلك على صدق إيمانهم. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾. وإن خطاب التكليف واحد في القرآن والسنة لكل من هو أهل للتكليف ذكراً كان أو أنثى، وإنما تعظم المسؤولية بعظم ما أعطى الله صاحبها من القدرة ووسائل العمل.

اللهم إنا نسألك عزيمة الرشد والثبات في الأمر.. ونسألك، وأنت الذي جمعت قلوب المؤمنين على محبتك ـ أن تبارك العمل، وتسدد الخطا، وتفتح البصائر على نور معرفتك.. والقلوب على كريم عطائك.

اللهم إنا ضعفاء فقوِّ في رضاك ضعفنا.. وخذ إلى الخير بناصيتنا.. ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً ولا حول ولا قوة إلا بالله.